

إسرائيل دولة الإرهاب

كميل حبيب (*)

مقدمة

مع مطلع السبعينات بدأت وسائل الإعلام الغربية والصهيونية باستعمال تعبير «الإرهاب الدولي» متناقلة بإسهاب أخباره المثيرة. واللافت في الأمر أنَّ أدبيات القانون الدولي لا تلاحظ تعريفاً واضحاً لمفهوم الإرهاب الدولي أو توثيقاً لخصائصه. وكانت النتيجة أن تعددت التفسيرات وتعارضت الآراء حول المعنى الحقيقي للإرهاب الدولي ليبقى في نهاية المطاف شعاراً سياسياً تطرحه جهات دولية وذلك لأسباب وأهداف ومصالح سياسية⁽¹⁾. وإننا نعتزف بداية أنَّ الموضوع الذي نحن بصدد معالجته لم يخضع إلاً لماماً لدراسات موضوعية وقانونية، لدرجة نخاف معها القول بأن الرأي العام العالمي قد قارب بين الإرهاب الدولي وكل ما هو عربي وإسلامي، بشكل عام، إنطلاقاً من التعبئة التي مارستها الدول الإمبريالية على شعوبها ضدَّ حركات التحرر الوطني في العالم الثالث التي كانت تصطدم مباشرة بمصالح هذه الدول، والتي تمثلت في المشرق العربي بحركة التحرر الوطني الفلسطيني.

وينقسم بحثنا في هذا الإطار إلى ثلاثة أقسام رئيسية. يتناول القسم الأول البعد النظري لمفهوم الإرهاب من خلال تعريفه وتبيان أنواعه، لنخلص إلى التمييز بين الدولة المساندة للإرهاب والدولة الإرهابية. أما القسم الثاني فيعالج القواعد المؤسسة لإرهاب الدولة الإسرائيلية. ختاماً، سوف نسلط الضوء مجدداً على جريمة قانا وأخواتها كحلقات متصلة في مسلسل الإرهاب الإسرائيلي، الذي لم ينته فصولاً بعد. يبقى أن نشير أننا كشعوب ودول عربية نمر في زمن نظام عالمي رديء يلصق فيه الجلاذ تهمة الإرهاب بالضحية.

(*) استاذ في كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية - الجامعة اللبنانية.

(1) ع، حسين: الانتفاضة وتقرير المصير، دار النفائس، بيروت، 1992، ص 46.

أولاً: البعد النظري لمفهوم الإرهاب

يعالج هذا القسم البعد النظري لمفهوم الإرهاب: تعريفه، طبيعته، وأنواعه. ويجب بداية التنويه في أن عدم وجود تعريف رسمي للإرهاب لا يعني انتفاء إمكانية دراسته. صحيح أن موضوع الإرهاب هو حديث العهد نسبياً، إلا أن هدفه وتقنيته لم يتغيرا عبر العصور. ولقد أشار إلى ذلك Sun Tzu منذ 2500 عام عندما قال: «الإرهاب يعني أن تقتل شخصاً لإدخال الرعب إلى قلوب 10 آلاف شخص آخر»⁽²⁾. لكن هدف الإرهاب شيء وتعريفه شيء آخر.

ولا شك في أن تعريف الإرهاب تعترضه صعوبات عدة لا بد من مناقشتها قبل التوصل إلى وضع تعريف «غير نهائي» له. وتعود الصعوبة الأولى في تعريف الإرهاب إلى أن القانون الدولي لا يقدم تعريفاً محدداً لمعنى الإرهاب، الأمر الذي سهّل على الدول الكبرى إتهام الشعوب والجماعات الثورية التي تناضل من أجل حريتها واستقلالها به. ففي نظر القانون الدولي فإنّ الدول لا تقوم بأعمال إرهابية بل بممارسات عدوانية، بغض النظر عن طبيعة تلك الأعمال والممارسات. وتتجلّى الصعوبة الثانية في كثرة التعريفات المعطاة لكلمة إرهاب. ومن بين هذه التعريفات نجد مثلاً:

1 - الإرهاب عنف يهدف إلى تحقيق أهداف سياسية. هذا التعريف يفرّق بين الإرهاب وغير ذلك من الجرائم غير السياسية، لكنه لا يميّز بين الإرهاب والأعمال العسكرية الأخرى، كالحرب مثلاً.

2 - التعريف الثاني قدّمته وكالة المخابرات المركزية الأميركية (CIA) التي عرّفت الإرهاب بأنّه عنف يهدف إلى تحقيق أهداف سياسية عن طريق نشر الرعب، لإجبار الطرف الآخر على اتخاذ موقف معيّن أو الامتناع عن اتخاذ موقف معيّن. هذا التعريف يسقط عندما تلتصق تهمة الإرهاب بطرف ما ضد طرف آخر في الصراع السياسي. فما هو إرهابي من وجهة نظر دولة معيّنة هو عمل مقاومة مشروعة من وجهة نظر دولة أو شعوب أخرى. فالإدارة الأميركية لم تصف زرع الألغام في ميناء نيكارغوا عام 1982 بالإرهاب لأنّ القائمين بالعمل هم الـ Contras وبمساعدة الـ CIA.

3 - التعريف الثالث للإرهاب تحدّث عن الضحية (بريء، غير عسكري أو مدني) كأساس لفهم العمل الإرهابي. لكن هذه الخصائص غير متشابهة. مثال على ذلك أنّ الضحية المدني (الجاسوس) ربما ليس بريئاً⁽³⁾.

4 - إنّ أحدث تعريف للإرهاب الذي وضعه Walter laqueur في Foreign Affairs

R. Clutterbuck: *Terrorism in an Unstable World*, (New York: Roulledge, 1994), p. 3. (2)

P. Sederberg: «Defining Terrorism», In B. Schechter and M. Slann, (ed.), *Violence and Terrorism*, (Guiford: The Dushkin Publishing Group, Inc., 1993), p. 7. (3)

عام 1996 لم يخرج أيضاً عن المؤلف. فقد عرّف Laqueur الإرهاب على كونه نوعاً من استخدام لطرق عنفية كوسيلة، الهدف منها نشر الرعب في المجتمع لإضعاف الحكم وتحقيق تغيّرات سياسية⁽⁴⁾. هذا التعريف لا يفي حقيقة بالغرض لأنّ أكثر المنظمات المتهمّة بالإرهاب، كالجيش الجمهوري الإيرلندي (IRA) ونمور التاميل في سيرلنكا ومنظمة الباسك (ETA) في إسبانيا لا تعتمد إستراتيجية عسكرية فقط، بل لها أيضاً ذراعها السياسية ومؤسساتها التربوية والاجتماعية والمالية. وهذا بالطبع ما ساعد ويساعد الجناح السياسي لتلك المنظمات على أن يبقى بمنأى عن تهمة الإرهاب.

يُستدلّ من كل هذه التعريفات أنّ الإرهاب يستعمل عادة للإدانة فقط. فإذا ما تمّ إلصاق تهمة الإرهاب بعدوٍّ ما في دائرة الصراع السياسي، فإنّ ذلك يعني تحقيق انتصار للطرف المتهم ولكن على حساب المنهجية العلمية الضرورية لفهم طبيعة الحرب والسلام وما بينهما من شعارات ثورية وحركات استقلالية مشروعة الخيار والأهداف. بكلمة أخرى، إنّ كلمة إرهاب تبقى عائقاً أمام عملية فهمنا للاضطرابات الاجتماعية والسياسية. وعليه فإنّ أيّ تعريف للإرهاب يجب أن يشرح أسباب الإدانة أو حيثيات التبرير للعمل الإرهابي.

وكانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد أدانت القمع والإرهاب، وربطت ذلك بحق تقرير المصير من خلال القرار 30340 المتّخذ في الدورة 27، تاريخ 18/12/1972، والذي جاء فيه: «تدين الجمعية العامة أعمال القمع والإرهاب التي تقوم بها الانظمة الإرهابية والعسكرية في إنكار حقّ الشعوب في تقرير المصير والاستقلال وغيرها من حقوق الإنسان وحرّياته الأساسية»⁽⁵⁾. هذا يعني أنّ الإرهاب هو عمل تقوم به الدول أيضاً. وعليه فقد عرّفت دول عدم الانحياز عام 1984 الإرهاب بأنه «نوع من العنف تقوم به قوى استعمارية، عنصرية، أو نظام ضد الشعوب المناضلة من أجل الحرية»⁽⁶⁾.

أخيراً، يرى بعض الباحثين أنه يجب التركيز على الإرهاب كعمل، والتمييز بين هذا العمل والقائم به حتى نتمكن من إحاطة الموضوع بكل جوانبه. وهذا يدفعنا طبعاً إلى التساؤل التالي: من هي الجهات التي تقوم بأعمال إرهابية؟

أولاً، إنّ سلاح الإرهاب الأساسي هو إشاعة الرعب بين مجموعة كبرى من الناس، على عكس الجريمة الفردية التي لا تحمل أي أهداف سياسية أو إيديولوجية. ويعتقد Kidder أنّ الإرهاب هو محاولة من الضعيف لإضعاف القوي⁽⁷⁾. هذا الضعيف يبقى متّهماً بالإرهاب من قبل النظام القائم حتى يثبت انتصاره ويبسط سيطرته على كامل

(4) W. Laqueur; «Postmodern Terrorism», *Foreign Affairs*, (Vol: 75, No: 5, 1996) pp. 24 - 25.

(5) ع. حسين: المصدر السابق، ص 45 - 46.

(6) P. Sederberg: «Defining Terrorism», p. 7.

(7) R. Kidder: «Unmasking Terrorism», In *Violence and Terrorism*, p. 14.

التراب الوطني، فيحظى عندها باعتراف دول العالم به. هذه الدول اعتادت تاريخياً على الاعتراف بالأمر الواقع بغض النظر عن طبيعة النظام القائم، ديكتاتورياً كان أم ديمقراطياً. أما لماذا يقوم الضعيف بأعمال إرهابية فمرد ذلك إلى هدفه في إظهار النظام القائم وقد فقد سيطرته كمقدمة لسحب الاعتراف الدولي به.

ثانياً، هناك الدولة المساندة للإرهاب وللجماعات الإرهابية لتحقيق أهداف سياسية خارج نطاق حدودها. أما نوعية المساندة التي تقدمها الدولة للجماعات الإرهابية فإنها قد تأخذ عدة أشكال أهمها:

أ - حرب إعلامية.

ب - فتح مكاتب ومعسكرات تدريب.

ج - تقديم المساعدات المالية والسلاح.

د - منح جوازات سفر مزورة.

هـ - تأييد مطالب الإرهابيين⁽⁸⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن الطائرات الأميركية قامت بقصف ليبيا في عام 1986 بعد اتهام واشنطن للعقيد القذافي بإيواء الإرهابيين. وهذه الاتهامات نفسها وجهتها الإدارات الأميركية المتعاقبة إلى كل من العراق والسودان.

ثالثاً، هناك أخيراً الدولة الإرهابية، وهي حالة من الإرهاب الأشد فتكاً والأكثر خطراً وذلك لأسباب رئيسية ثلاثة:

1 - العمل الإرهابي هنا تقوم به الدولة من خلال شرطتها، جيشها، أو بوليسها السري.

2 - الدولة الإرهابية قادرة على نقل الإرهاب خارج حدودها، وربما عن طريق سفاراتها في الخارج.

3 - الإرهاب هنا مؤسساتي، أي تشارك به مؤسسات الدولة السياسية والعسكرية كإرهاب ستالين في الثلاثينات، وإرهاب هتلر بين 1933 و1945.

وللدولة الإرهابية خصائصها التي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

1 - قدرتها على تبرير أعمالها الإرهابية على أساس المصلحة العليا للدولة، أو بحجة الدفاع عن النفس.

2 - استعدادها لممارسة الإرهاب داخل نطاق حدودها إلى درجة تنفيذ أبشع المجازر.

3 - تأسيسها لفرق إرهابية لمعاقبة المنشقين في الخارج.

4 - ممارسة الرقابة على وسائل الإعلام.

5 - إبعاد المعارضين إلى خارج حدودها.

6 - انتهاج سياسة تربوية قائمة على التمييز العنصري، كممارسات النظام العنصري السابق في بريتوريا⁽⁹⁾.

7 - استعداد هذه الدولة للقيام باعتداءات عسكرية مباشرة ضد جيرانها بحجة ملاحقة الإرهابيين حيث هم. ويجمع العديد من الباحثين إلى كون العدوان هو أخطر أنواع الإرهاب. وفي عام 1974 عرّفت الجمعية العامة للأمم المتحدة العدوان بأنه «استخدام القوة المسلحة من جانب دولة ضد سلامة ووحدة الأراضي الإقليمية، أو الاستقلال السياسي لدولة أخرى، أو بأي طريقة لا تتماشى مع ميثاق الأمم المتحدة، كما هو محدد في هذا التعريف»⁽¹⁰⁾.

في تشرين الثاني عام 1996 نشرت مجلة تايم الأميركية تحقيقاً مفصلاً اعتبرت فيه إيران دولة إرهابية. وفي نظر المجلة المذكورة، فإن أوامر القتل والإرهاب تصدر مباشرة من قبل وزارة الأمن والمعلومات، ويقوم بها رجال دين إيرانيون أو من يؤيدهم كمنظمة حماس وحزب الله. أما من يسهّل أعمال طهران الإرهابية على الساحة الدولية، والكلام لمجلة تايم الأميركية، فإنها سفارات إيران في الخارج. وحصيلة تلك الأعمال الإرهابية هي مقتل ما يزيد عن 1000 / شخص منذ انتصار الثورة الإيرانية عام 1979. وتحتوي لائحة الضحايا على أسماء منشقين إيرانيين، وجنود فرنسيين وأميركيين قتلوا في بيروت عام 1983، وتدمير المركز اليهودي في بيونس آيرس عام 1992⁽¹¹⁾. وهذه الأعمال الإرهابية العابرة للحدود الإيرانية جعلت من إيران، أو غيرها من الدول التي تقوم بأعمال وممارسات إرهابية مشابهة، جزءاً مما اتفق على تسميته بالإرهاب الدولي.

هذا الإرهاب يكون من خلال الأعمال التالية:

- 1 - الاحتجاز غير المشروع للأفراد ومقايضتهم مع معتقلين من جهات أخرى.
 - 2 - خطف الطائرات المدنية.
 - 3 - الاعتداء غير المشروع على سلامة أراضي دولة مجاورة واحتلال أراضيها.
- ومع يقيننا بأنّ للعمل الإرهابي أسبابه الاجتماعية والاقتصادية والإيديولوجية والسياسية، إلا أنّ الإرهابي تحكمه حالة نفسية خاصة به تحمل السمات التالية:
- 1 - فهو يؤمن بأنّ قضيته محقّة.

(9) M. Slann: «The state as Terrorist» Violence and Terrorism, pp. 68 - 73.

(10) ع، حسين: المصدر السابق، ص 45.

(11) T. Sanction: «Iran's State of Terror», Time, 11 November 1996, pp. 79 - 84.

- 2 - ويعتقد أن ما يقوم به هو الصحيح لأن ليس هناك خيار آخر للتغيير.
- 3 - يدّعي المثالية ويجاهر بقرب انتصاره.
- 4 - يعيش عادة نوعاً من العزلة الاجتماعية ويحمل السلاح لإثبات الوجود.
- 5 - يمتلك استعداداً كاملاً للقتل دون تردد⁽¹²⁾.

ويستلخص مما تقدّم أنّ للإرهاب إشكاليته الخاصة إن من حيث تعريفه أو تعداد أسبابه وشرح طبيعته وأنواعه. غير أنّ إرهاب الدولة يبقى من أخطر أنواع الإرهاب على الإطلاق، فالدولة قادرة في أية لحظة على تبرير أعمالها الإرهابية على قاعدة أنّ الدولة لا توصف بالإرهاب، والإرهاب هو صفة الأفراد وليست الدول. ولربما من خلال تركيزنا على الإرهاب كعمل نستطيع تسليط الضوء على قواعد وطبيعة الإرهاب الذي مارسه ولا تزال الدولة الإسرائيلية.

ثانياً: إسرائيل دولة الإرهاب

يبدو جلياً مما تقدّم أنّ لنا في موضوع العلاقة بين إسرائيل والإرهاب اجتهاداً خاصاً تقتضيه المنهجية العلمية. فالرابط الأساسي والعضوي بين الإرهاب والدولة العبرية لا يعود فقط إلى أنّ تعبير الإرهاب يدخل ضمن مسألة الصراع السياسي بين الضحية والجلاد، وإنما أيضاً إلى قدرة الدولة العبرية على إظهار ضحاياها بمظهر الإرهابيين. هذه القدرة عند دولة إسرائيل لم تتحقّق بسحر ساحر، بل بسبب الدعم الذي لاقتّه تل أبيب من الدول الرأسمالية. فمع مطلع هذا القرن كانت عند الدول الرأسمالية أهداف توسعية تهدف للسيطرة على مقدّرات العالم تحقيقاً لمصالحها المادية. وبالتالي، وجدت هذه الدول في إسرائيل حصان طروادة للسيطرة على طرق ومنايع النفط. هنا بالذات تكمن أهمية الحديث عن الإرهاب كمفهوم جديد نشأ مع بداية السبعينات بعد تعاظم المواجهة مع الإمبريالية ورببيتها إسرائيل.

ويبقى السؤال، كيف تمكّنت دولة إسرائيل ومن قبلها الصهيونية العالمية من اجتذاب الدول الإمبريالية، أي الدول صاحبة القرار على المستوى الدولي، إلى جانبها في معركتها المنافية لكل قواعد الحق والعدل والسلام؟ إنّ الإجابة عن هذا التساؤل تدفعنا دون أدنى شكّ إلى تحليل القواعد الأساسية لإرهاب الدولة العبرية. هذه المرتكزات هي دينية، سياسية، وعسكرية.

أولاً، على المستوى الديني، إن أيّ قراءة للعوامل النفسية الدافعة للإرهاب الإسرائيلي تقود الباحث، دون أدنى شكّ، إلى دراسة تاريخ بني إسرائيل وثقافتهم الدينية. والأهمية القصوى تُعطى هنا للعلاقة القائمة بين اليهود وأرض فلسطين ضمن

الإطار التوراتي. فيهودية إسرائيل لها موقع خاص في تكوين الثقافة السياسية عند أبناء المجتمع لأنها تتحكم بكل الشعور والإيمان والتصرفات. وهكذا فإن إقامة دولة إسرائيل عام 1948 قد مثل بنظر اليهود تحقيقاً لنبوءة توراتية منحتهم موقعاً خاصاً في علاقتهم مع يهوه كشعبه المختار⁽¹³⁾. هذه الخصوصية أثمرت في نفوس اليهود أحاسيس التفوق، وجعلتهم ينظرون إلى غير اليهودي نظرات التباهي والاستعلاء والاحتقار. فالتعاليم الدينية لا تسمح لهم بالاندماج مع باقي الشعوب ولو عايشوها مئات السنين. كل ذلك لأن إلههم يهوه انتقامهم من بين سائر الأمم واختص بهم. «أكون لكم إلهاً وتكونون لي شعباً»، كما جاء في سفر اللاويين. أما بقية شعوب الأرض فمخلوقات خرجت من زرائب الحيوانات⁽¹⁴⁾.

ومع الصهيونية، الوليد السياسي للمعتقدات اليهودية، أصبحت الأرض المغزوة أرضاً موعودة. كل هذا تمّ بأمر من يهوه. ففي المؤتمر الثامن والعشرين للصهيونية الذي عُقد في القدس المحتلة، أعلن مناحيم بيغن: «أنه لا يمكن الفصل بين القومية وبين الديانة اليهودية»⁽¹⁵⁾. فدولة إسرائيل أو حلم العودة إلى أرض صهيون، كما يؤكد على ذلك Gray، هي «المبدأ الدائم المتوهج في أدب اليهود المقدس»⁽¹⁶⁾. من هنا تعتبر الصهيونية، التي هدفت لتحقيق النبوءة التوراتية في أرض الميعاد، الترجمة السياسية للدين اليهودي. بكلمة أخرى، إن الاستيطان اليهودي في فلسطين وتهجير أهلها من ديارهم والقتل واحتلال أراضي الدول المجاورة وممارسة أفظع المجازر، كل ذلك له ما يبرره دينياً. وبالتالي، ما من سبيل لفهم الإرهاب الإسرائيلي إلا بالعودة إلى التراث اليهودي المتمثل في التوراة.

ففي الفصل الرابع من سفر الخروج عدد 22، نقراً: «هكذا يقول الرب، إسرائيل ابني البكر». وعليه، فإن الحاخام كوهين في كتابه التلمود يعلن: «إن سكان الأرض قسمان: إسرائيل والشعوب الأخرى، منظوراً إليها ككل. إن إسرائيل هي الشعب المختار، وهذه عقيدة أساسية»⁽¹⁷⁾. هذا يعني بوضوح أن إله اليهود هو إله خاص بهم وليس له أية علاقة لا من قريب أو من بعيد بالإله الواحد في الإنجيل والقرآن. كما نقراً في أسفار التوراة الصفحات الأساسية ليهوه إله الحزب (خروج 15:3)، والنار (خروج 24:17)، والبراكين (خروج 19:18)⁽¹⁸⁾. أما في ما يتعلق مباشرة بمجال بحثنا فإننا نقراً بأن يهوه هو إله المجازر والإبادة الجماعية كما جاء في سفر التكوين 7:6 حيث أباد يهوه جميع

N. Safran, Israel: The Embattled Ally, (Cambridge: The Belknap Press of Harvard University Press, 1978), pp. 92 - 94. (13)

ر، اليازجي: «قراءة جديدة للتوراة والتلمود»، اتجاه، العدد 5، آذار - نيسان 1997، ص، 471 - 472. (14)

المصدر السابق، ص 472. (15)

J. Gray: «Israel At 40: A state Under Siege», The Globe and Mail, 18 June 1988, p. D1. (16)

ر، غاردوي: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، دمشق: دار عطية، 1996، ص، 50. (17)

ي، كفروني: «المسيحية اليهودية»، اتجاه، المصدر السابق، ص 438. (18)

الكائنات الحية باستثناء نوح وعائلته. أمّا تعبير الإبادة الجماعية أو Genocide فيعني التدمير المنهجي لمجموعة عرقية وإبادة أفرادها. هذا التعريف ينطبق حرفياً على حالة غزو يشوع لأرض كنعان حيث أوصاه يهوه أن لا «تستبق منها نسمة ما بل تحرقها»⁽¹⁹⁾.

ثانياً، على المستوى السياسي، تابع اليهود طلب يهوه في الإبادة الجماعية للشعوب المجاورة وسرقة أرضهم⁽²⁰⁾. ولهذا، يستخلص اليازجي، «تُعلم اليهودية اليهودي أنّ كل شيء مباح له إذا كان يخصّ الغير. فالزنى والسرقة والكره والخديعة أمور مباحة مع غير اليهودي»⁽²¹⁾. لكن اليهود كانوا بحاجة إلى آلية سياسية وعسكرية لتحقيق وعد يهوه لهم في الأرض الممتدة من نهر مصر إلى نهر الفرات تمثلت بالصهيونية. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ انتقاء يهوه لليهود كشعبه المختار لا معنى له خارج نطاق وعده لهم بأرض فلسطين. وليس صحيحاً القول بإمكانية الفصل بين اليهودية والصهيونية لأنّ كليهما يحتوي على تبرير إيديولوجي لخلق دولة إسرائيل. ففي المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد في بال سويسرا عام 1897، أعلن هرتزل «أنّ الصهيونية هي العودة إلى أحضان اليهودية قبل الرجوع إلى أرض صهيون، وأنّ هدف الحركة الصهيونية هو تنفيذ النص الوارد في التوراة والقاضي بإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين»⁽²²⁾. وفي السياق نفسه أطلق ماكس نوردر، المساعد الأول لهرتزل، عبارته الشهيرة: «اليهودية إمّا أن تكون صهيونية أو لا تكون»⁽²³⁾. كل هذا يعني أنّ الصهيونية لم تبدأ في مؤتمر بال، ولم تكن وليدة ظروف العداء للسامية التي ظهرت في أوروبا إبّان القرن التاسع عشر، وبالتالي لا يمكن تصنيفها كإحدى القوميات البورجوازية. بكلمة أخرى، الصهيونية ما كانت لتوجد لولا جذورها التوراتية⁽²⁴⁾.

الصهيونية هي أيضاً حركة استعمارية. وبمعنى أكثر وضوحاً، إنّ الممارسات الإرهابية الصهيونية المبررة دينياً، لها غطاؤها الاستعماري والإمبريالي. ففي كتابه التجربة والخطأ يدعو حايم وايزمن الحكومة البريطانية إلى «النظر للمشروع الصهيوني في ضوء مصالح الامبراطورية»، بحيث إنّ الدولة اليهودية سوف تكون الحامية لقناة السويس⁽²⁵⁾. وهكذا جاء التمهيد العملي للإرهاب الصهيوني من خلال وعد بلفور عام 1917 للصهيونية بأرض فلسطين «كوطن قومي لليهود». ذلك الوعد

(19) المصدر السابق، ص 437 - 438.

(20) ر، اليازجي: المصدر السابق، ص 474.

(21) المصدر السابق، ص 474.

(22) المصدر السابق، ص 473.

(23) المصدر السابق، ص 473.

(24) إ، رعد: الصهيونية الشرق اوسطية، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1997، ص 15.

(25) C. Weizman: Trial and Terror, (London: Harper and Brothers, 1949), p. 243.

الاستعماري أنكر هوية البلاد وشعبها معتبراً إياهم «بالسكان غير اليهود». الصهيونية، إذن، هي الرابط بين وعد يهوه التوراتي ووعد بريطانيا السياسي، مما مكنها من ممارسة أبشع أنواع الإرهاب دون رادع أو رقيب. حتى إن كل من يجرؤ على فضح الأكاذيب الصهيونية يوضع حُكماً من قبل الدوائر الصهيونية في خانة العداء للسامية، تماماً كما حصل حديثاً للمفكر الفرنسي روجيه غارودي على أثر نشر كتابه الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.

ومع العلم أن العداء للسامية قد برز في أوروبا لأسباب دينية واقتصادية، إلا أن المعنى السياسي لهذا التعبير قد أخذ مدلولات جديدة بعد نشوء دولة إسرائيل. فبإمكان تل أبيب أن تمارس الإرهاب على المستوى الدولي مستترة باتهام كل من يعارض نهجها أو يكشف عن ممارستها الإرهابية بالعداء للسامية. وتصبح الترجمة العملية لهذه المقولة على الشكل التالي:

- 1 - موافقة إسرائيل على كل ما تقوم به.
- 2 - عدم اتخاذ أي موقف إلى جانب أي طرف معاد لإسرائيل.
- 3 - ممارسة ضغوط من قبل إسرائيل على كل الهيئات الدولية والدول الكبرى لابتزازها وإجبارها على الاستجابة لرغباتها.

وهكذا وجدت الصهيونية الطريق مفتوحاً أمامها لممارسة إرهابها السياسي عبر مقولة أن فلسطين هي أرض بلا شعب، وبالتالي هي ملك لشعب (اليهودي) بلا أرض. كل ذلك، مع العلم أن الإحصاءات تشير إلى أنه في عام 1880/ كان هناك 25000/ يهودي في فلسطين مقابل 500 ألف مواطن فلسطيني. أما في عام 1917، أي عام وعد بلفور، فإن عدد اليهود في فلسطين لم يبلغ أكثر من ثمانية في المئة من مجموع سكانها، ولا يملكون أكثر من اثنين في المئة من مجموع أراضيها. وأخيراً، في عام 1947، أي عشية الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى، لم يكن مجموع السكان اليهود بالرغم من هجراتهم الكثيفة إلى أرض فلسطين أكثر من ثلث السكان⁽²⁶⁾.

وبناء على ما تقدّم، فإنه لا يجب أن يخدعنا أحد بإمكانية وجود حمائم صهاينة. فحتى أولئك الذين يتباهون بعضويتهم في الحزب الشيوعي الإسرائيلي، لم يكونوا أبداً دعاة سلام بدليل مشاركتهم في الجريمة الإرهابية الصهيونية في استلاب أصحاب الأرض حقوقهم المشروعة. بيت القصيد هنا، هو أن لا نقع في مطب المراهنات على «حمائم» حزب العمل في عملية التسوية الجارية فصلاً في عهد «صقور» تجمّع الليكود. فالوحدة الداخلية في إسرائيل تقوم على قواعد الدّين، أي أهمية عودة يهود الشتات وأولوية الدفاع. من جهته يرى Friedman أن الاختلاف بين بن غوريون وبيغن أو بين

شامير (اليوم نتنياهو) وبيريس هو في جوهره تكتيكي وليس جوهرياً. ويشرح Friedman أنَّ بن غوريون قبل بقرار الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين عام 1947 كخيار أفضل من استمرار الانتداب البريطاني، وليس لأنه كان مستعداً للتخلي عن «حقَّ إسرائيل الديني في كل الأراضي الموعودة»⁽²⁷⁾. زد على ذلك أنَّ حزب العمل، وليس تجمع الليكود، هو الذي اتخذ القرار العسكري باحتلال القدس، وهضبة الجولان السورية، وشبه جزيرة سيناء عام 1967. ولا بدَّ من التساؤل هنا: أين تكمن أوجه الاختلاف بين حزبي العمل والليكود عندما يعلن شيمون بيريس في 1 حزيران 1995 لجريدة الحياة أنَّ «إسرائيل لا تحتل أراضٍ عربية. إسرائيل هوجمت وانتصرت في الأراضي التي هوجمت فيها»⁽²⁸⁾. وباختصار، إنَّ زعماء إسرائيل على اختلاف أسمائهم هم خريجو مدرسة إرهابية واحدة عنوانها التوراة الصهيونية.

ثالثاً: ممارسات إسرائيل الإرهابية

نعالج في هذا القسم كيف أنَّ الممارسات الإرهابية للدولة الإسرائيلية المستمدة من وعدي يهو وهو وبلفور، والتي قد تمَّت ترجمتها عبر منظمات إرهابية يهودية، هي أيضاً كانت المؤسسة لما سمي لاحقاً بجيش الدفاع الإسرائيلي. وفي هذا النطاق يمكن اعتبار منظمتي «الهاغانا» و «الأرغون» الأكثر تنظيماً. مثال على ذلك أنَّ دستور منظمة «الهاغانا» الذي عدِّل عام 1943، اعتمد فيما بعد كأساس لتنظيم الجيش الإسرائيلي. أمَّا مؤسسات الاستخبارات فهي أربع: جهاز الاستخبارات العسكرية، مؤسسة الاستخبارات والمهمات الخاصة (الموساد)، جهاز الأمن العام (شين بيت)، ومركز التخطيط والبحث الإستراتيجي⁽²⁹⁾. وفي عام 1950 تمَّ إنشاء لجنة خاصة للتنسيق بين كل هذه الأجهزة وتحديد أولوياتها.

وبالعودة إلى تعريفنا السابق للإرهاب، نلاحظ أنَّ الإرهاب الإسرائيلي اتخذ ويتخذ عدة أشكال منها الابتزاز، المجازر، خطف الطائرات، الاغتيالات، والتجسس. وكل هذه الأعمال لم توجَّه فقط ضدَّ الإنسان العربي، بل طالت أيضاً الدول التي حالفها أو ناصرته. أبرز الأمثلة على ذلك تحميل إسرائيل كلَّ الشعب الألماني وزر المحرقة وحتى لخصوم هتلر الذين كانوا في السجون إبَّان الحكم النازي. ففي كتابه هذا السلام اسمه الحرب كشف عادل إلياس أنَّ التعويضات الألمانية لإسرائيل بلغت في عام 1996 حوالي 4,9 مليار مارك. حتى الولايات المتحدة لم تكن بمنأى عن عمليات تجسس الموساد. ففي تشرين الثاني عام 1985 ألقت السلطات الأميركية القبض على جوناثان

(27) T. Friedman: *From Beirut To Jerusalem*, (New York: Farrar Straus Giroux, 1989), p. 259.

(28) أ، رعد: المصدر السابق، ص 27.

(29) Schiff, Z: *A History of the Israeli Army*, (London: Sidgwick and Jackson, 1987), pp. 191 - 193.

بولارد بتهمة التجسس لصالح إسرائيل⁽³⁰⁾.

ونبقى في مناقشة هذا النوع من الإرهاب لنشير إلى أنه في 19 شباط 1998، اعتقلت السلطات السويسرية خمسة عملاء تابعين لجهاز الموساد وهم يحاولون وضع أجهزة تنصت على الهاتف في قبو منزل كان يقطنه أحد أعضاء حزب الله منذ أربع سنوات⁽³¹⁾. أيضاً، في 25 أيلول 1997 تم اعتقال عميلين للموساد يحملان جوازات سفر كندية مزورة لدى محاولتهما اغتيال خالد مشعل، رئيس المكتب السياسي لحركة حماس في الأردن⁽³²⁾. حتى اللحظة لم تتقدم تل أبيب بأي اعتذار عن تلك الأعمال الإرهابية بالرغم من انتهاك الموساد لسيادة دولتين مستقلتين.

أما عن الإرهاب كوسيلة عنف، فإننا نشير إلى أن الحركة الصهيونية قدمت أمثلة مبكرة على الإرهاب الدولي في الشرق الأوسط وضد دولة حليفة. إذ يكفي أن نعرف:

- 1 - تفجير سفينة باتريا (Patria) وركابها على ظهرها في مرفأ حيفا في عام 1940 بقصد ممارسة الضغط السياسي على بريطانيا.
- 2 - عملية إسرائيلية معروفة باسم «فضيحة لافون» ضد الممتلكات الأميركية في مصر، وذلك لتوتير العلاقات بين واشنطن وحكومة الرئيس عبد الناصر في عام 1954.
- 3 - اغتيال أول وسيط للأمم المتحدة، الكونت فولك برنادوت في 16 أيلول عام 1948. نفذت هذه العملية عصابة «شتيرن» وبأمر من إسحق شامير.
- 4 - تدمير فندق الملك دواد في القدس في 26 تموز عام 1946. وقد ذهب ضحية هذا الحادث الإرهابي حوالي 100 موظف رسمي من البريطانيين والعرب⁽³³⁾.
- بالنسبة إلى الإغتيالات، يكفي أن نذكر أن جهاز الموساد قام باغتيال قادة فلسطينيين في عواصم عالمية، ومنتفعين بالحصانة الدبلوماسية. مثال على ذلك:
- 1 - إغتيال كل من محمود همشري في باريس ووائل زعتر في روما خلال العام 1972.
- 2 - إغتيال الأديب الفلسطيني غسان كنفاني في بيروت تموز عام 1972.
- 3 - إغتيال كمال ناصر، كمال عدوان، ويوسف النجار في نيسان عام 1973.
- 4 - إغتيال أبو حسن سلامة في بيروت عام 1976.
- 5 - إغتيال سعيد حمامي ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لندن في شباط عام 1979.

(30) B. Woodward, Veil: The Secret Wars of the CIA 1981 - 1987, (NY: Simon and Schuster, 1987), p. 478.

(31) النهار، 27 شباط 1998، ص 13.

(32) المصدر السابق، ص 13.

(33) ع، حسين: المصدر السابق، ص 47 - 51.

- 6 - إغتيال اسماعيل الفاروقي في فيلادلفيا ومنذر أبو غزالة في أثينا بين عامي 1985 و 1986.
- 7 - إغتيال خليل الوزير (أبو جهاد) في تونس عام 1988⁽³⁴⁾.
- وبالنسبة إلى أعمال القرصنة الجوية واختطاف الطائرات المدنية وتدميرها فإننا نشير إلى أنَّ الموساد قامت بالأعمال الإرهابية التالية:
- 1 - خطف طائرة مدنية سورية وإجبارها على الهبوط في مطار اللد في كانون الأول عام 1954.
- 2 - قام سلاح الجو الإسرائيلي بغارة على مطار بيروت الدولي ودمّر الاسطول الجوي اللبناني في عام 1968.
- 3 - في 21 شباط 1973، قُتل 102 شخص حين أسقطت الطائرات الحربية الإسرائيلية طائرة ركاب ليبية مدنية متجهة من طرابلس الغرب إلى القاهرة.
- 4 - أرغم سلاح الجو الإسرائيلي طائرة ليبية صغيرة كانت تقل عدداً من كبار المسؤولين السوريين على الهبوط في إحدى القواعد الجوية الإسرائيلية في عام 1986⁽³⁵⁾.
- ولن ننسى في تعداد المآثر الإرهابية الإسرائيلية، أنَّ احتلال إسرائيل للأراضي العربية يُعتبر من أفظع أشكال الإرهاب على الإطلاق. فإسرائيل تحدّت ولا تزال كل القرارات الدولية التي تدعوها للانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، كما نصّ على ذلك قرار مجلس الأمن رقم 242. أمّا بالنسبة إلى السكان العرب الراضين تحت الاحتلال، فقد مارست عليهم إسرائيل أبشع أساليب الإرهاب، نذكر منها: -
- 1 - كسر عظام المتظاهرين.
- 2 - تدمير المنازل.
- 3 - إقفال الجامعات.
- 4 - الاعتقال الإداري.
- 5 - طرد الأشخاص بموجب ما يُسمى بأوامر الإبعاد.
- 6 - التعذيب النفسي والجسدي⁽³⁶⁾.
- وأخيراً، تبقى المجازر وأساليب الإبادة الصفحة الأكثر سواداً في دليل إسرائيل الإرهابي. من هذه المجازر نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

(34) C. Hoy And V. Ostrovsky: *By Way of Deception*, (Toronto: Stoddart, 1990); See also G. Jonas, *Vengeance*, (Collins: Lester and Orpen Dennys, 1984).

(35) ب، شرارة: قانا وإخواتها، عالم الفكر، بيروت، 1996، ص 130 - 133.

(36) *The Globe and Mail*, 8 January 1988, p. A 7.

1 - مجرزة دير ياسين التي نفذتها عصابة «الأرغون» بقيادة مناحيم بيغن وأدت إلى ذبح 254 فلسطينياً في 9 نيسان 1948. ولقد علّق بيغن على ذلك فيما بعد، بقوله: «لولا النصر في دير ياسين لما كانت هناك دولة إسرائيل».

2 - مذبحة اللد في 12 تموز 1948 حيث دخلت العصابات الصهيونية المدينة وأطلقت النار على جميع المارة. واعترف القتل بأنهم قضاوا على 250 عربياً.

3 - قتل الجنود المصريين الأسرى في حربي 1956 و1967 ودفنهم في مقابر جماعية.

4 - قصف طائرات الفانتوم لمنطقة أبو زعبل وقتل 80 عاملاً مصرياً في 12 نيسان 1970.

5 - في 8 تشرين الأول 1990 ارتكبت قوات الاحتلال مجرزة الحرم الشريف والتي سقط خلالها 23 شهيداً وأكثر من 300 جريح.

6 - في 25 شباط 1994 قام باروخ فولدشتاين بقتل 40 عربياً كنوع من الصلابة في قبر البطاركة اليهود.

أمّا في لبنان فيمكن القول بأنّ تاريخ الاعتداءات الإسرائيلية على هذا البلد هو تاريخ المجازر والإرهاب. من هذه المجازر نذكر حولا (1948)، جانين (1967)، بنت جبيل (1967)، عملية الليطاني (1978) والتي سقط خلالها 560 شهيداً، الاجتياح البربري عام 1982 وما تخلّله من حصار مربع لمدينة بيروت دام أكثر من 72 يوماً والاشتراك في مذابح صبرا وشاتيلا. وقد أوقع هذا الغزو الآلاف من القتلى والجرحى عدا الخسائر المادية الباهظة. وفي تموز عام 1993 اقتربت إسرائيل مجازر أخرى إبّان ما سمي بعملية «تقديم الحساب» والتي استمرت سبعة أيام. ولقد أسفرت هذه العملية عن استشهاد 133 شهيداً وتهجير 300 ألف إنسان من قراهم⁽³⁷⁾.

وأمّا قانا الجليل فإنّ دمها لم يجفّ، وأطفالها ما زالوا يبحثون عن الحقيقة. وعندما دوّت صيحة موتهم عالية وحزينة في أروقة الأمم المتحدة كان زعماء إسرائيل يضحكون في سرهم لأنّ موت العرب لا معنى له بنظرهم، فهو وقود لدولة تخطو خطواتها منذ سنوات بعيدة على أرضنا العربية، بالدم والحديد والنار...⁽³⁸⁾. نعم، في 18 نيسان عام 1996 قصفت المدفعية الإسرائيلية، وعن سابق تصور وتصميم، موقع القوات الفيدجية التابع للأمم المتحدة مخلفة 107 شهداء معظمهم من النساء والأطفال. ولقد أشار تقرير الأمين العام للأمم المتحدة الصادر في 7 أيار 1996 إلى «أنّ نسق سقوط القذائف في منطقة قانا يجعل من غير المرجح أن يكون قصف مجمع الأمم المتحدة نتيجة أخطاء تقنية أو إجرائية»⁽³⁹⁾. المهم أنّ عملية عناقيد الحقد الإسرائيلية،

(37) مؤسسة الدراسات الفلسطينية: حرب الأيام السبعة على لبنان، بيروت 1993.

(38) من مقدمة الدكتور جرجيت عطية إبراهيم لكتاب غارودي، ص 7.

(39) ب، شرارة: المصدر السابق، ص 334.

جاءت بعد انعقاد مؤتمر شرم الشيخ في 12 آذار 1996 تحت شعار «قمة صانعي السلام». هذا المؤتمر انعقد لدعم شمون بيريس المتهم بالتقصير في الانتخابات البرلمانية والتي حُددت في 29 أيار 1996. وفي اليوم الثاني الذي أعقب المؤتمر تعهد الرئيس كليتوتون تقديم 100 مليون دولار لإسرائيل لمساعدتها على مكافحة الإرهاب⁽⁴⁰⁾.

خاتمة

في حديث إلى صحيفة Jerusalem Post تاريخ 10 آب 1976، أعلن موشي دايان ما يلي: «لو أنّ الإنسان ملك التوراة ونظر إلى نفسه كشعب التوراة، لكان عليه أن يملك كل الأراضي التوراتية». بهذه القناعة اغتال إيغال عامير إسحق رابين في 4 تشرين الثاني عام 1995، لأن الأخير برأي عامير قد خالف أمر يهوه بالحفاظ على الأرض الموعودة. فمهما تعددت أو تغيرت وجوه رؤساء الحكومات الإسرائيلية، يبقى الإرهاب السمة الرئيسية للسياسة الإسرائيلية تجاه العرب:

- فشعب إسرائيل شعب إرهابي لأنه استوطن بلاداً ليست ملكه.

- وجيش إسرائيل جيش إرهابي لأنه يحتل أراضي عربية دون أي وجه حق.

- وحكومة إسرائيل حكومة إرهابية أكان رئيسها بنيامين نتنياهو أم يهودا باراك.

ومع ذلك فإنه قد تتبادل تل أبيب وبعض العواصم العربية السفراء على قاعدة بعض الأرض من جانب إسرائيل مقابل كلّ السلام من جانب هذه الدول العربية. إلا أنّ هذا لن ينهي حالة الصراع بين القومية العنصرية الصهيونية وبين القومية العربية ذات الرسالة الحضارية والإنسانية المنزلة في الإنجيل والقرآن.

وإذا ما أردنا الاستفادة من عبر التاريخ فلننّا نجد بين الحملة الصليبية الأولى وبين تحرير القدس على يدي صلاح الدين قرابة القرنين من الزمن، لم يستطع الغزاة خلالها التجذّر في هذه الأرض بالرغم من كل محاولاتهم الجدية لذلك.

فَلِمَ التهافت على السلم الإسرائيلي إذن، طالما أنّ أرضنا الطيبة لا بدّ من أن تحافظ على نقائها وطهارتها وتلفظ الغرباء المدنّسين لترابها ولو بعد حين؟

(40) ملف النهار، «من عنقايد الغضب إلى سقوط بيريس»، حزيران 1996، ص 12 - 15.